

بلاغة التصوير في نثر الجاحظ

"صورة المرأة في رسالة القيان"



فهد أولاد الهانني

أستاذ باحث - المغرب

لقد أجمع النقاد والدارسون، لما خلفه الجاحظ من نصوص ثرية، على أن هذه النصوص تكتسب قيمتها الأدبية مما يتسم به نثرها من قدرة على التصوير وبراعة في التعبير عن صغائر الأشياء وغرائب السلوكيات، ولعل ذلك ما جعل طه حسين يفسر أدبية كتاب "البخلاء" بمعيار "التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير¹؛ بيد أن نثر الجاحظ لم يكن ليوجد لنفسه هالة بلاغية متميزة لو لم يستجد سمات فنية تنأى بجماليتها عن سلطة الشعر، وتفتح لنفسها آفاقاً تخرج بلاغة النص من الحدود الضيقة التي طالما انحسرت في جزر جمالية معزولة تحدها أبواب من التشبيه والاستعارة وعموم المجاز، لتتجاوز ذلك إلى حدود أرحب تجعل النثر يستند في رؤيته البلاغية على سمات جمالية تنقاد لمسلمة "الوعي بالجنس" (générique Conscience) وتبني في المقابل ملامح النثر الأدبي الجميل.

ففي رسالة القيان يكشف النثر عن رهان بلاغي يتقصد الجاحظ من خلاله بناء أسس مناقضة لأصول الشعر العربي القديم²، وهو بذلك يتحدى بنثره بلاغة الشعر التي عنيت بتصوير مفاتن المرأة ومحاسنها، دون أن تخوض في تصوير أفعالها وسلوكياتها؛ من هذا المنطلق تغدو رسالة القيان بمثابة صراع من الكتابة الأدبية التي تسعى إلى الانتصار على ما ألفه الذوق النقدي القديم من بلاغة تولى زمام ريادة الشعر، وحاول غير ما مرة أن يقدم أيقونة المرأة في حلة من التصوير الجسدي الذي لا يغادر ما تقع عليه الحواس وما تقف عنده العيون. غير أن

الجاحظ اتخذ من رسالته هاته مدخلاً إبداعياً سخر من خلاله نثره الأدبي لمنازعة الشعر تلك المكانة التي طالما حظيت برضا النقاد القدامى واستحسانهم، وهو إذ يعلن عن هذا النوع من التحدي يثير في ذهن المتلقي إشكالات أهمها: إلى أي حد استطاع نثر الجاحظ، في تصويره للنماذج البشرية؛ أن يتخلص من سلطان التصوير الشعري، ويبني في المقابل قواعد مغايرة للتصوير في النصوص النثرية؟ وهل استطاعت رسالة القيان أن تخرج صورة المرأة من حيزها التقليدي "الصورة الجسد" إلى حيز أغرب يتمثل في "الصورة الفعل"؟ بحيث يسترد النثر ما تم تقييده من جوانب في شخصية المرأة التي يأبى الجاحظ اختزال أوثقها في فتنة الجسد ومحاسنها.

1- ومضات من رسالة القيان:

رسالة القيان هي إحدى رسائل الجاحظ في مجموعة "داماد" التي اعتمدها المحقق عبد السلام هارون، وعنوانها "كتاب القيان"، وهو كتاب دعا من خلاله الجاحظ إلى الخروج عن الأعراف والتقاليد في معايشة النساء، مدافعاً بذلك عن حضور المرأة في النظام الثقافي العام. لأن في هذا الحضور حضوراً لبلاغة المرأة وثقافتها وسحرها، واستشهد لذلك بنوادير النصوص والأخبار، وعرج: بما وهب من قدرة على الملاحظة ودقة في الوصف؛ على وصف عالم القينة وثقافتها، ورصد بلاغة تأثيرها في نفوس "الربيطين"، دون أن يغض الطرف؛ وهو الخبير بتصوير خبايا النفوس ودقائق الأشياء؛ على ما يفعله

الفناء بنفوس المستمعين وما يوقده "الجمال" من مشاعر الحب والعشق والغرام، وقد سخر أبو عثمان رسالته لتصوير خلال "القينة" الساحرة بكلامها، المالكة قلوب العشاق بفنائها، راصداً بذلك طبقة اجتماعية أفرزها التمدن الحضاري في المجتمع العباسي، حيث كان لحياة البذخ والترف والنعيم التي رسا عليها المجتمع في ذلك العصر الدور الأساس في نشوء فئات مهمشة وروابط اجتماعية متباينة، تلقفها نثر الجاحظ بكثير من التصوير والوصف والتحليل.

والناظر في كتاب (القيان) يقف به نظره على أن الكتاب هو رسالة موجهة من "مقيتين"³ ذكر الجاحظ أسماءهم في صدر رسالته، وأسبغ عليهم أوصاف الإخوان "المستمعين بالنعمة، والمؤثرين للذة، المتمتعين بالقيان والإخوان"⁴، وهم أناس تربطهم أواصر التمتع بالجمال وتحكمهم تجارة الجوارى والقيان، ولذلك تنافسوا في الدفاع عن "أنفسهم وفرض تجارتهم حتى لا تبور سلعتهم، وحرصوا على دفع الناس إلى وصفها تجارة حلالاً، إذ لا نص يحرمها في اعتقادهم، ولا حديث ينكرها"⁵. فمن هؤلاء المقيتين وجهت الرسالة إلى "أهل الجهالة والجفاء، وغلظ الطبع، وفساد الحس"⁶ الذين ينكرون نعمة القيان، وينتصرون لإنكارهم بدليل من القرآن أو الحديث الشريف.

لقد جعل الجاحظ من رسالته فضاء يتعاور في فقراته قضية نزاع فقهي بين فريقين متعارضين، أولهما يؤمن بجواز اختلاط المرأة بالرجال ومحادثاتهم، والثاني يرفض هذا الاختلاط ويحرمه؛ ونتيجة هذا التباين في المواقف والاختلاف في القناعات طغى على الرسالة؛ بالإضافة إلى المقصدية الأدبية الإمتاعية؛ المقصدية الحجاجية التداولية التي شكلت ملامح بلاغة الرسالة ورافداً من روافد خطابها.

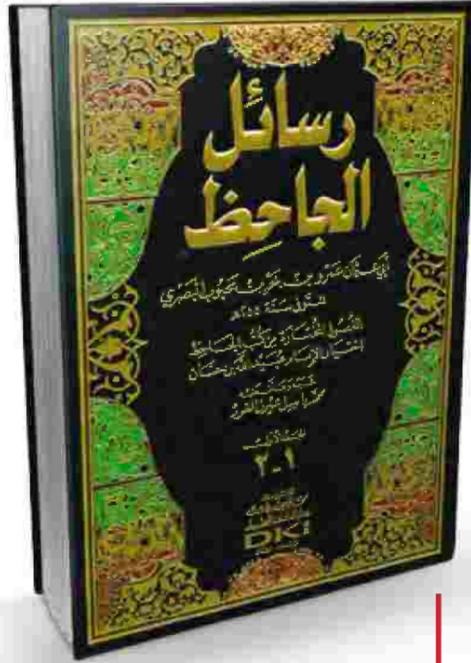
إن رسالة "القيان" فن من الكتابة النثرية تم تسخيرها لتصوير عالم "القيان" بكل متعلقاته النفسية والاجتماعية والثقافية. وما هؤلاء القيان إلا إماء "يحسن الرقص والمداعبة والغناء"⁷ وتكفيهن في ذلك شهادة الجاحظ الذي أقر بأن الواحدة منهن تشأ "من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة ولا مروءة"⁸، هكذا استوى عالم القينة على خلال من اللهو والمجون والإغراء، وانعقدت نتيجة لذلك روابط مهنية لم يكن للمجتمع العربي ألف بها ولا عهد، فالتأم شمل "القيان" في رابطة اجتماعية تجمع كلا من "القيان" و"المقيتين" و"الربيطين" حتى غدا التقيين "صناعة كريمة شريفة"⁹ تلي حاجات من عشق القد الجميل، وسلم مهجته برمية من لحظ ودعابة من تبسم، فأوقعه ذلك في حبال الهوى وانقاد إلى غواية القينة

بسحر كلامها وعقيرة حلقها. والظاهر مما سبق أن الجاحظ في تناوله لهذه الطبقة من النساء لم ينطلق "من تجربة غزلية ذاتية، ولم يصف قينة بعينها، بل انطلق من ظاهرة حضارية عامة"¹⁰، ودليل ذلك أن الرجل لم يختار للقينة "التي يصفها اسماً من الأسماء"¹¹، فقال "إن القينة لا تكاد تخلص في عشقها، ولا تتأصح في ودها لأنها مكتسبة ومجبوطة على نصب الحباله"¹²، وكأن الجاحظ يروم تصوير نموذج إنساني ترتد إليه خلال القيان جميعهن. وتقف عند بابه أفعالهن.

لقد شكلت رسالة القيان مرتعاً فسيح الصفحات نثر من خلاله المؤلف ملامح بلاغته الراحبة، وضمنه ما يؤمن به من رؤى ثقافية وفنية واجتماعية، حتى صارت؛ بما حظيت به من شهرة؛ قبلة كل أديب، ووجهة كل بليغ شغفه من الكلام سحر وصفه وبراعة تصويره ومنطق احتجاجه.

2: صورة المرأة في نثر الجاحظ: 1-2: المرأة البليغة:

لم يخل الشعر العربي القديم من قصائد شعرية تناولت بالوصف والتصوير صورة المرأة الجسد، بوصفها أيقونة تبعث على المتعة والتسلية، حيث عرج كثير من الشعراء على تقصي أوصافها الجسدية، وأسهبوا في وصف محاسنها الفاتنة، التي جعلت منها رمزاً يدل على ما تبوح به الطبيعة من جمال أخاذ، ولم يكن الشعر ليستر هذا الوصف الذي أرخى ظلاله على جسد المرأة دون روحها وفعلها، حتى غدا بذلك ظاهرة فنية يتلمسها النقاد في أغراض فنية من قبيل الغزل والتشبيب وغير ذلك، فكان من الطبيعي والحال هاته أن يزخر تراثا الشعري بشعراء كبار عرفوا بعبقريتهم من أسماء صوحيباتهم، واستقرت صورة المحبوبة الجميلة موضوعاً للشعر عند طائفة منهم، إلا أن هذه الصورة لم تحد في تكوينها عما تتصف به النساء من جمال فتان "في الوجوه النيرة، والمحاسن الرائعة المعجبة، والصور المليحة الأنيقة، واعتدال التركيب، واستقامة التدوير، وسبوط الشعر وجزالة الفروع، وجعودة الغدائر واسترسالها على المتون كالأشطان، ونجل العيون وحوار الأحداق وبرج المقل وأسالة الخدود"¹³ وغير ذلك مما لهجت به خواطر الشعراء، وجادت به قرائحهم في التصوير، حتى ليخيل إلى دارس الشعر القديم أن الباعث على قول كثير من قصائده ما للمرأة من جمال ساحر يخلب ألباب الشعراء ويأخذ بتلابيب إبداعهم. وحسي من ذلك أن معظم هؤلاء الشعراء¹⁴ وقفوا في وصفهم على مفاتن المرأة ومحاسنها أكثر مما وقفوا على خلالها النفسية، وأفعالها التي تعكس أحوالاً من طبيعتها وشيئاً من سلوكياتها وتصرفاتها، فهذا ذو الرمة يصف الجمال المادي بحبيبته فيقول:



وقد سخر أبو عثمان رسالته لتصوير خلال "القينة" الساحرة بكلامها، المالكة قلوب العشاق بفنائها، راصداً بذلك طبقة اجتماعية أفرزها التمدن الحضاري في المجتمع العباسي، حيث كان لحياة البذخ والترف والنعيم التي رسا عليها المجتمع في ذلك العصر الدور الأساس في نشوء فئات مهمشة وروابط اجتماعية متباينة، تلقفها نثر الجاحظ بكثير من التصوير والوصف والتحليل.

براقة الجيد واللبات واضحة

كانها طبية أفضى بها لبيب

عجزاء ممكورة خمصانة قلق

عنها الوشاح وتم الجسم والقصب

زين الثياب وإن أثوابها استلب

فوق الحشية يوماً زانها السلب

تريك سنة وجه غير مقرفة

ملساء ليس بها خال ولا ندب¹⁵

” لم تكن المرأة في رسالة القيان لذة تباع وتشتري ومتعة تعشق وحسب، إنها؛ بالإضافة إلى ذلك كله؛ قوة جامحة من الرزانة، وأ نموذج بشري ناطق بدرر من الجمل البليغة، وكاتبة بارعة “

وهو وصف جسدي سخره الشاعر بغية تشكيل صورة مكتملة وجميلة لمواضع من جسد حبيبته، بحيث لا مجال للوقوف في هذه الأبيات على ما يرتبط بجوانب أخرى تتعلق بالروح والفعل والعقل، التي قد تفيض بها المرأة على ما حفره الشعر في الوعي الجمعي، فتحمو بذلك صورتها المختزلة في خصال من جسدها، والتي جعلها ذاتاً ترتبطها بالمتعة واللذة والإثارة أواصر متعددة.

بيد أن نثر الجاحظ لم يذعن لما ترسب في الذائقة الشعرية من اختزال يحسر المرأة في محاسن جسدها، وإنما سعى؛ في تصويره المرأة؛ مسعى يشكل صورتها من روافد متباينة، وكأن الجاحظ بتبنيه هذا النهج في التصوير يروم كشف الستار عما أغفله الشعر من سمات تقدم المرأة بوصفها "نموذجاً اجتماعياً فاعلاً في محيطه"¹⁶ ، ولذلك لم تكن المرأة في رسالة القيان لذة تباع وتشتري ومتعة تعشق وحسب، إنها؛ بالإضافة إلى ذلك كله؛ قوة جامحة من الرزانة، وأ نموذج بشري ناطق بدرر من الجمل البليغة، وكاتبة بارعة¹⁷ تبعد بدواتها رسائل من العشق تخيط منها شركاً لمربوطيها. أو ليست المرأة عنده مسامرة للرجال في حديثهم، وحفاظة من الشعر عيونه التي تصطاد بها طلابها، وصاحبة رأي ومشورة عند بعض الخلفاء؟ ثم ألم تكن بلاغة جوابها هي التي حققت دمها من الإهدار؟ ففي سياق إبراز الجاحظ لهذه السمة من شخصيتها البليغة أورد في رسالته خبر جميل وبثينة التي "حسك في صدر أخيها ما حسك من استعظام المؤانسة، وخروج العذر عن المخالطة، وشكا ذلك إلى زوجها وهزه ما حشمه، فكمننا لجميل عند إتيانه بثينة ليقتلاه، فلما دنا لحديثه وحديثها سمعاه يقول ممتحنًا لها: هل لك فيما يكون بين الرجال والنساء فيما يشفي غليل العشق ويطفئ نائرة الشوق؟ قالت: لا، قال: ولم ذلك؟ قالت: إن الحب إذا نكح فسد. فأخرج سيفًا

قد كان أخفاه تحت ثوبه فقال: أما والله لو أنعمت لي لمأته منك، فلما سمعا بذلك وثقا بغيبه وركنا إلى عفاه، وانصرفا عن قتله، وأباحاه النظر والمحادثة"¹⁸ لم تدعن بثينة في هذا الخبر لما راودها به جميل وأبت أن تنقاد لغوايته المفتعلة، وأخرجت بجوابها (إن الحب إذا نكح فسد) المرأة من حيز الشهوة الجامحة التي طالما تغنى بها الشعراء إلى حيز الخطاب البليغ الذي دفع جميلًا إلى تغيير موقفه وسلوكه معًا. جواب مختصر لكنه بالغ التأثير في مخاطبه، وبفضله انتصرت المرأة النائرة على الرجل الشاعر دون أن تكون في حاجة إلى تطعيم كلامها بشيء من التشبيه والاستعارة والمجاز، وبذلك يعلن النثر انتصاره على يد المرأة التي أتاح لها الجاحظ فرصة الكلام لتكشف ملامح من شخصيتها البليغة التي تجمع الشعر والنثر والكتابة والارتجال والحفظ والرواية، فتتأى بذلك صورتها عما ألفه الفارئ من ملامح مادية فاتنة. وتصطنع لنفسها أبعادًا رحبة تشكل صورتها الشخصية.

2-2 المرأة الفاتنة:

” صورة المرأة في النثر ليست صورة حسية تقوم على وصف المحاسن والمفاتن كما هو الحال في شعر الغزل ، بل تقوم على تأثير الجمال في المحيط الإنساني الذي تعيش فيه “ *** * * محمد مشبال**

بتنا على يقين تام بأن أبا عثمان قد جعل من نثره فضاء تصويرياً يسع أبعاداً رحبة من السمات الفنية التي غيبتها الشعر في تشكيله صورة المرأة، فبعد أن ظفر الشعر بجسد المرأة واحتفى بمفاتنتها المادية، يقف نثر الجاحظ مستلهماً لصورتها خصائص وأفعالاً تعري جوانب منسية في شخصيتها، وتفتح بلاغة التصوير عنده على رؤية من الوصف لا يقف مداها عند حدود الجسد وتفاصيله التي يستسيغها الذوق النقدي العربي، ففي رسالة القيان يكشف النثر عن سمة "المرأة الفاتنة" التي تتخذ من سحر فتنتها سلاحاً تسحر به طلابها من الرجال وتبلغ به أهدافها وطموحاتها؛ ولعل في هذه الفتنة من الفعل ما استدعى من النثر أن يولي وجهه نحو تصوير المرأة الفاتنة وأثرها في المحيط الاجتماعي الذي تعيش فيه. يقول الجاحظ واصفًا غناء القينة وتأثيره على سامعيه: "وإذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغني حلق إليها الطرف، وأصغى نحوها السمع، وألقى إليها القلب الملك، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه، فيوثاقيان عند حبة القلب فيفرغ ما وعياه، فيتولد منه مع السرور حاسة للمس، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط. فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة"¹⁹.

هي لوحة من التصوير أذا، انكب فيها الجاحظ على تصوير ما يتركه غناء القينة من أثر في سامعيه؛ بحيث تصبح القينة ردفاً للبلاغة في التأثير، وتنصهر بذلك المرأة في البلاغة من جهة ما تحقته من أثر في المخاطب، وهو أثر تعوذ منه الجاحظ بقوله "اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل"²⁰، هذه الفتنة التي رصد لها النثر في رسالة القيان إمكانات سردية تعاقبت فيها الجمل الفعلية على تصوير جوانب من أثر الغناء في جسد السامع ونفسه معًا، وهو الأثر الذي اقتنص له الجاحظ من ردود فعل السامع صوراً مترابطة من التأثير الذي تدعن له حواس من بصره وسمعه حتى يصل ذلك إلى القلب، وقد استجار السرد في ذلك بجمل ذات أفعال وارفة الظلال في معانيها (حلق، أصغى، ألقى، استبق، تولد ..)، وقيد هذه الأفعال بتواتر الأحداث التي علقت أفعالها بوصف خطية من الحركة المتنامية في نسق تصاعدي (فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدي إلى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه فيتولد منه مع السرور حاسة للمس)، وأوغل بوصفه في رصد الحالة الوجدانية التي تنتج عن سماع الغناء (السرور)، بحيث يجتمع للسامع (في وقت واحد ثلاث لذات لا تجتمع له في شيء قط). كل هذا وذاك يجعل من غناء المرأة ثوبًا من ثياب فتنتها، ولونًا من ألوان بلاغتها التي تنازع الشعر في قوة تأثيره على النفوس.

ولم تكن المرأة فاتنة بعقيرة حلقها ورخامة صوتها وحسب، بل أبرز لها الجاحظ وجهاً آخر من وجوه فتنتها التي ميزت شخصيتها، فهي المرأة المحتالة التي جمعت بالإضافة إلى سمات الغدر والإيهام قلة المناصحة والخيانة، وجبلت في فطرتها على "نصب الحباله والشرك للمرتبطين"، وأظهرت من سلوكياتها عكس ما تضرع في باطنها، "فتبكي لواحد بعين، وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحدًا سرها والآخر علانيته، وتوهمه أنها له دون الآخر"²¹ فجاءت فتنتها مترجمة بترسانة من الأفعال التي تستدرج بها مربوطيها، حتى لتبدو في تصرفاتها متفنتة في الاستدراج، قادرة على الاحتيال، متنصلة من عهودها ووعودها، وهي في كل ذلك مراودة بالقول والفعل والحركة. تنصب؛ في خطابها؛ شراكاً من الكلام الجميل الذي يعضد من سحر جمالها وغنائها فيغدو شعرها أداة إغواء وكيد، وتستعين بحركات وجهها في الرفع من حدة المراودة (فإذا شاهدتها المشاهد رامته باللعظ، وداعبته بالتبسم...)،²² بحيث لم يهدأ لها بال من دون أن تسخر لمراودتها أفعالاً مصطنعة تتوخى منها الإيقاع بضحيتها وإيهامه بقدر ما هو عليه من منزلة عندها، فتكاتبه "تشكو إليه هواه، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعها، وبلت السحاء بريقها، وأنه شجيبها وشجوها في فكرتها وضميرها، في ليها ونهارها، وأنها لا تريد سواه، ولا تؤثر أحدًا على هواه، ولا تريده ماله

بل لنفسه..²³، وهي في كل ادعائها تتظاهر بالصباية، وتبرع في صنعتها بحسن تمثيلها، وتتقن من الحيل ما تسحر به مخاطبها لتملك منه زمام عقله وقلبه. حتى إنها على حد تعبير الجاحظ تحسن ما "ليس يحسن هاروت وماروت، وعصا موسى، وسحرة فرعون"²⁴.

وقد تولى السرد رسم سمات شخصيتها المحتالة، فأخرج ذلك في أفعال متلونة ساهمت في نمو الأحداث وتقدمها، وأسبغ عليها نغوتًا من الأفعال والأوصاف ترضي كلها إلى معاني الاحتيال والمكر والمراودة، والحق أن هذه الأوصاف جعلت منها امرأة فاتنة بغواية الغناء، ساحرة بما للكلمة البليغة من تأثير في نفسية المتلقي، بحيث لم يكن من المصادفة في شيء أن يعمد الجاحظ إلى وصف ما تحفظه من مادة غزلية توظفها في مقام المراودة والإغراء. ف "تروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً...ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة، ولا ترهيب من عقاب، ولا ترغيب في ثواب؛ وإنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق والغلمة"²⁵،

الهوامش

* **البلاغة والسرد، جدلية التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ محمد مشبال منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة عبد المالك السعدي تطوان 2010، ص: 110

- 1 - من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف بمصر ، سنة 1969 ، ص: 66
- 2 - البلاغة والسرد، ص: 162
- 3 - من هؤلاء المقينين نذكر أبا موسى بن إسحاق بن موسى، ومحمد بن خالد خذار خذاه، والحسن بن إبراهيم بن رباح، وغيرهم.
- 4 - رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، 1964 الجزء الثاني، كتاب القيان، ص: 143
- 5 - التقين في العصر العباسي، محمد المختاري العبيدي، مجلة حوثيات الجامعة التونسية، كلية الآداب جامعة تونس، العدد 28 ، سنة 1988، ص: 257
- 6 - كتاب القيان، ص: 143
- 7 - مرجع سابق، محمد المختار العبيدي، ص: 256
- 8 - كتاب القيان، ص: 176
- 9 -نفسه، ص: 179
- 10 -أدبية النص النثري عند الجاحظ، صالح بن رمضان، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، الطبعة 1 ، سنة 1990 ، ص: 23
- 11 - الجاحظ والمرأة ، شارل بلا ، حوثيات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد 25 ، 1986 ، ص: 17
- 12 - كتاب القيان، ص: 171
- 13 -المرأة في الشعر الأموي، فاطمة تجور، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999 ، ص: 298
- 14 - من هؤلاء الشعراء شعراء العصر الجاهلي الذين سخروا شعرهم لوصف جسد المرأة ، واقتنوا في تصويره حتى عد مذهبهم في ذلك نموذجاً يحتذى من لدن من لحقهم من الشعراء، وحسبي

ويكون في حفظها لهذه المادة من شعر الغزل ما يكشف عن مكون آخر من مكونات صورتها الفاتنة.²⁶

في الختام:

لم يكن نثر الجاحظ ليجاري بعض الفنون النثرية التي حاولت أن ترسخ حضورها الأدبي من خلال إذعانها للسلطة الجمالية التي رسخها الشعر في الذوق الأدبي العام، حيث كانت القصيدة "الشكل الأدبي الأقوى العام، حضورًا في الوعي الجمالي والأقوى تحكما في صياغة المبادئ النقدية والمقولات البلاغية"²⁷ . وإنما نحا نثره؛ ممتلاً في رسالة القيان؛ منحنى بلاغيًا يهتدي في رؤيته البلاغية إلى مسلمة الوعي بالجنس، وهي مسلمة اقتضت من الجاحظ أن ينهل من تصور بلاغي زحزح إلى حد بعيد ما قام عليه الشعر من أصول بلاغية طالما احتضى بها النقد القديم وفرش لها من مصنفاته الشيء الكثير، ولعل في ذلك ما يفسر للقارئ المذهب البلاغي الذي تبناه الجاحظ في تصويره المرأة القينة، والذي جنح فيه نحو شيء من الواقعية في الوصف، وحرص على أن يستمد

من ذلك دليلاً قول امرئ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقوفة كالجسجل
انظر في ذلك: ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، ص: 15

15 - ديوان ذي الرمة، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق وتقديم عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان ببيروت، سنة 1982 ، ص: 26

16 - أدبية النص النثري عند الجاحظ، ص: 40

17 - يعتقد عبد الفتاح عثمان أن كتابة الرسائل الغرامية نوع فني جديد ابتكرته الجوّاري في العصر العباسي، انظر في ذلك: شعر المرأة في العصر العباسي، دراسة تاريخية وتحليلية وفقية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة ، 2004، ص: 153

* ** البلاغة والسرد، محمد مشبال، ص: 132

- 19 - كتاب القيان، ص: 171
- 20 - البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة السابعة، 1998. الجزء الأول، ص: 3
- 21 - كتاب القيان ، ص: 175
- 22 - نفسه ، ص: 171
- 23 - نفسه ، ص: 172
- 24 - نفسه ، ص: 175
- 25 - كتاب القيان، ص: 176
- 26 - أدبية النص النثري عند الجاحظ، ص: 29
- 27 - بلاغة النادرة، محمد مشبال، دار جسور للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2001 ، ص: 64
- 28 -الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية والأدبية، دار المعارف، الطبعة التاسعة، ص: 161
- 29 - من حديث الشعر والنثر، ص: 66

مقوماته الأدبية بمنأى عن خيالات الشعر ومجازاته، وأخرج بذلك الوصف الأدبي من حدود الجسد وتفاصيله إلى مساحات رصد من خلالها جمال الفعل والكلمة والتأثير. هذا و يظهر من الرسالة أن الجاحظ قد راهن في نثره على نقل "الأدب من طور بلاغة الأسلوب إلى طور بلاغة الحياة"²⁸ بحيث لم يعد النثر معه مشدودًا إلى سحر الكلمة وفتنتها الأدبية، بقدر ما أنه عكف على تصوير تفاصيل الحياة ودقائقها، وفي ذلك ما يفسر اهتمام الجاحظ بطبقة القيان مولدًا ومنشأً ثقافةً وسلوكًا، جمالًا وغناءً، فتنةً وتأثيرًا، وهو في ذلك كله لم يحد في كتابته النثرية عن "التصوير الدقيق الذي لا يقاس إليه تصوير"²⁹ محاولاً بذلك تصوير نماذج من البشر على حقيقتها الإنسانية التي تجمع بين الخير والشر من دون مبالغة أو غلو.

المصادر:

□ البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة السابعة، 1998.

□ ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف بمصر، 1969.

□ ديوان ذي الرمة، رواية أبي العباس ثعلب، تحقيق وتقديم عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان ببيروت، سنة 1982.

□ رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1964 .

المراجع:

□ أدبية النص النثري عند الجاحظ، صالح بن رمضان، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، تونس، سوسة، الطبعة 1 ، سنة 1990.

□ بلاغة النادرة، محمد مشبال، دار جسور للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 2001

□ البلاغة والسرد، جدلية التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، محمد مشبال، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي تطوان 2010.

□ التقين في العصر العباسي، محمد المختاري العبيدي، مجلة حوثيات الجامعة التونسية، كلية الآداب جامعة تونس، العدد 28 ، سنة 1988.

□ الجاحظ والمرأة، شارل بلا، حوثيات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، العدد 25 ، 1986 .

□ شعر المرأة في العصر العباسي، دراسة تاريخية وتحليلية وفقية، عبد الفتاح عثمان، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2004

□ الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

□ من حديث الشعر والنثر، طه حسين، دار المعارف بمصر، سنة 1969 .

□ المرأة في الشعر الأموي، فاطمة تجور، منشورات اتحاد كتاب العرب، 1999 .